

سلسلة الأسرار الإسلامية

سِرُّ السِّرْدَاب

محمّد علي قطب

الدّار النّموذجيّة للطّباعة والنشر
صيدا - بيروت


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

سلسلة الأسرار الإسلامية

سِرُّ السِّرْدَابِ

إعداد
محمّد علي قطب

الدّار النّموذجيّة للطّباعة والنشر
صيدا - بيروت

الطبعة الأولى
١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

شركة أبناء شريف الأنصاري
فروعها المكتبة العصرية
الدار النموذجية
بيروت - ص.ب ٨٣٥٥ - صيدا - ص.ب ٢٢١
تلكس: SCS ٢٩١٩٨LE - ٢٠٤٣٧LE

بسم الله الرحمن الرحيم

أبنائي الأعزّاء:

سِرُّ اليوْم هُوَ: سِرُّ السِّرْداب...

والسّرْداب هو الدهليز تحت الأرض والنّفق الطويل المظلم!!!

كان هذا السِّرداب يحتوي سِرّاً رهيباً مخيفاً... وحْشيّاً.

فما هُو يا تُرى؟ ومن هُم أبطالُه؟ ومن الذين كانوا وراءَه؟

تعالُوا معاً نُتابع ونَتَقَصّى، لِنعْرف الحقائق، ونكشف الأستار عمّا خفِيَ من الأخبار، وما جرى من وقائع داخل هذا السِّرداب؟!!..

* * *

معركة في شوارع مدريد

[«مدريد» عاصمة الدولة الإسبانية الحديثة، كان العرب المسلمون يسمُّونها «مَجْريط»، أيام وُجُودهم في الأندلس طوال تسعة قرون. . . ،

ولم تكن «مدريد» شيْئاً مذكوراً إزاء «قرطبة» و «إشبيلية» و «غرناطة» وغيرها من المُدُن الأندلسية. . .

في هذه المدينة. . . جَرَت أحداث قِصّة سِرّ «السِّرْداب»، منذ ما يُقارب المائتيْ عام.

[يرويها لنا شاهد عيان].

. . . حَيْث كان الضحايا بمئات الألوف، بل بالملايين إن شئت الحقيقة، وَ[سرُّ السِّرْداب]. . . ٱكتشفه أَحَدُ ضباط الحملة الفرنسية علي [إسبانيا] في عهد الملك «نابليون» ـ الثالث ـ، الذي اجتاح هذه

الدولة مع مطلع القرن التاسع عشر. . .

فكيْف تَمَّ له ذلك؟

وما هي الفضائح والمخازي التي أُزيح السّتارُ عَنْها بعد أن لفّها الجهْل والغُمُوض عقوداً طويلةً من السِّنين؟

وإنّه من الإنصاف للتاريخ وللحقيقة أن نعتمد كُلّيَّةً على التقرير الذي قدَّمه هذا الضابط لرؤسائه من دون تزيُّدٍ أَوْ إضافة، ولسوْف تجد ـ عزيزي القارىء ـ في هذا التقرير حقائق أغرب من الخيال، مما لا يقبله عَقْل ولا يسيغُهُ ضمير.

وهذا التقرير، هو من الوثائق التاريخية التي لا تزال موْجودَةً في ملفّات دواوين السُّلطة الفرنسية. . .

وإليْك الحكاية:

يقول الضابط «ليمونسْكي»:

كنت في سنة (١٨٠٩) م، عاملاً في الجيش الفرنسي الذي كان يقاتل في «إسبانيا». . .

وكنت مع فرقتي من الجيش الذي آحتل [مدريد] ـ العاصمة ـ وكان الامبراطور]نابليون] قد

أصدر مرسوماً سنة (١٨٠٨) م بإلغاء [دواوين التفتيش] في المملكة «الإسبانية».

ولكن هـذا الأمر أُهمـل، ولم يُعمـل بـه، وذلـك بسبب الحالة الحـربية، والاضـطرابات السيـاسية التي كانت سائدة ذلك الوقت.

وقد خلقت جوّاً من الفـوضى العارمـة جعلت من تنفيذ مضمون هـذا المرسـوم أمراً ميْؤوسـاً منه، فكُنّـا نصـرف النظر أحيـاناً عن مضـاعفاتـه وآثاره، ولا نهتم كثيراً به.

وعلى ذلك. . .، فقد صَمَّم رُهْبان [الجزويت] - اليسوعيون - أصحابُ ذلك «الـدّيوان»، ديـوان محاكم التفتيش، أَنْ يقْتُلوا، أو يعـذّبُوا كُـلّ فـرَنسيّ يقـع في أيديهم انتقاماً من ذلك القرار (سواء كان هذا الفرنسي عسكريّاً أو مَـدَنيّاً)، وذلـك من أَجْل إلقـاء الرُّعْب في قلوب الفرنسيين بعامّة، وبطريقةٍ تضطرُّهم إلى إخـلاء البــلاد ومغـادرتهــا ليَخلُوَ لهم الجـوّ. . . (ويعــاوِدوا شرورهم وآثامهم!!!).

المعركة!!!

وبينما كُنْتُ أسير ذات ليْلةٍ ـ بين الساعة العاشرة والحادية عشرة ـ في قلْب العاصمة، في شارع من شوارع «مدْرِيد»، أشبه بالحواري الضيِّقة، الْمُعتمة المظْلمة، لا يمُرُّ فيه الناس كثيراً. . .، إذا بٱثْنين ملَثَّميْن مُسلَّحيْن ينقضّان عليّ ويهاجماني يريدانِ قتْلي. . .!

فدافعتُ عن نَفْسِي دفاع المستميت. . .، ولم يخلِّصْني منهما وينجِّيني من غَدْرهما إلا مرور سريَّةٍ من جُنْدنا، من الجَيش الفرنْسي، كانت تقوم بِدَوريّاتها في أنْحاء المدينة، وكانت هذه السّريَّة من الخيّالة. . . تطُوف أحياء المدينة طول اللَّيْل. . . حاملةً المصابيح والمشاعل، لحفْظ النِّظام.

ولمّا شاهد المجْرمان قدوم الدَّوْرية،

وآقتـرابها. . . لاذا بـالْفرار. . . ، وتبيَّن لنـا أن هـذين الرَّجُلَيْن هما من جُنودِ «ديوان التفتيش» ، عرفْنا ذلك من لباسهما الذي يُميِّزهما.



ما العمل ؟؟

أَسرعْتُ من فَوْري إلى «الماريشال» : «سُولْت» ، حاكم «مدْريد» العسكري آنذاك ، ودَخَلتُ عليه غُرفة نَوْمِهِ ، بعد أن استأْذنت ، وأَطلَعْتُه على ما حَدَث ، وكانت غرفة نوْمِهِ هي مكْتبه اللَّيْليّ ، وقليلاً ما كان ينام ، نظراً للظروف التي نعيشُها في تلك البلاد . . .

فغضب «الماريشال» غضباً شديداً ، وآستشاط غَيْظاً وضِيقاً ، ثم قال لي :

ـ أنا لا أَشُكُّ في أن من قُتِلَ ويُقْتل من الجنود في كل ليْلةٍ ، إنما يتمُّ علي أَيْدي أولئك الأَوْغاد الأشرار ، جنودُ «ديوان التّفتيش» . . . ، الذين ما يزالون يسرحون ويمرحُون . . . ، ولا بُدّ من معاقبتهم ، والاقتصاص منهم ، وتَنْفيذ المرسوم الملكيّ الصادر عن الامبراطور «نابليون» . . .

وعلى الفوْر أعطاني «الماريشال» الأَمْر، فقال:

ـ والان... لك أن تَأْخُذ معك أَلْف جُنْديّ، وأربعة مدافع، وتهاجم ديْر «ديوان التفتيش»، بُؤْرة هؤلاء المجرمين، ثم تقبض على أولئك الرُّهبان الأَبالسة، إذا تحقّق لديك أن ما يُنسب إليهم من الفضائح والفظائع حقيقي...، ثم نَقْتصّ منهم بمحاكمتهم أمام مجلس عسكريّ، لينالُوا الجزاءَ العادل...



حصارُ الدَّيْر...

عند الساعة الرابعة صباحاً. . . ، ركبْتُ فرسي، ومضيْتُ على رأْس تلْك الحملة، وقصدْنا ديْر «ديوان التفتيش». . .

وكان يبعد عن مدينة «مدريد» قُرابة خمسة أَمْيال. . . ، في إحْدى ضواحيها. . . ، ولم يدْر الرُّهْبان في داخله إلّا والجنود يحيطون بديْرهم، والمدافع مُصوَّبة إليْهم.

وكان هذا الدَّيْر عبارةً عن بناءٍ ضخْم، أشبه بالْقلاع، له أسْوارٌ عالية جدّاً، يَحرسُها فرقة من جنود «الْجزْويت» ـ اليسوعيّين ـ، فتقدَّمْتُ من باب الدير، الخشبيّ الغليظ، وخاطَبْتُ الحارس الذي كان واقفاً على أعلى السُّور، فوق الباب، وأمرْتُهُ بٱسْم الامبراطور «نابليون» أن يَفْتَح الباب. . !

وظهر لي، أن هذا الحارس، قبل أن يرُدَّ عليَّ، قد ٱلْتفت إلى الداخل وأخذ يَتكلَّم مع أشخاصٍ لا نراهم من الخارج. . .

ولمّا ٱنتهى من حديثه معهم، عاد وٱلْتفت نحوي، ثُمّ صَوَّب بندقيَّته، وراح يُطلق الرصاص. . .، وكان هذا هُوَ الرّدُّ والجواب. . .

ثم ٱنْهالت علیْنا نيرانُ البنادق من كل جهةٍ وناحية، فوقع بعض رجالي قتلى، وجُرح البعض الآخر. . .، فٱرْتددْنا قليلاً إلى الوراء، وأَخْلیْنا الساحة من القتْلى والجرْحى. . .

ثم أَمرْتُ الجنود أَنْ يُهاجموا الدَّيْر، ويقتحمُوهُ عُنْوةً، لأن إطلاق الرصاص من قِبَل جُنودُ «الحزويت» - اليسوعيين - كان بمثابة رفْض، وهذا ما يُبرّر ٱقتحامنا لِلدَّيْر. . .، فهم لن يفتحوه إلا بالْقُوَّة.



الهجـوم

وآنهـال الرصـاص على الأَسْوار، وعلى البـاب، وكذلك قذائف مدافعنـا الأربعة. . .، وأَحْضَـر جُنْدنـا أخشـاباً غليـظة سميكة اتخـذوها لهم متـاريس ودُشَماً متـنقّلة، تـحفـظهـم من رصـاص جـنـود «ديــوان التفتيش». . . الذي آنهمر علَيْنا كالمطر الغزير.

دامت المعركة بيننـا وبينهم قرابـة نصف ساعـة، بعدها استطاعت مدفعيتنـا فَتْح ثغـرةٍ كبيرة واسعـة في حائط الديْـر وسورِه الضَّخْم. . .، دخلْنـا منها إلى قلْب الدَّيْر وآستوْليْنا عليه.

وكُنْتُ أنا وبعض زملائي الضُّباط أوّلَ الدّاخلين.



رُهْبان... أَمْ عصابة؟!

أَسْرع رُهْبانُ «الْجزْويت» ـ اليسوعيين ـ لِلقائنا مُرَحِّبين، بوُجوهٍ باشة، مُستفهمين عن سبب قُدومنا على هذا الحال!! من حَمْلةٍ عسكريّةٍ وٱقْتحام...!!، كَأَن لم يكُن من شَيْءٍ بَيْننا؟؟ ولم تكُن مـوْقعة؟؟ ولم يكن قتالٌ بَيْن جنودنا وجنودهم؟؟

ثم توجَّهُوا نَحْو جنودهم... فٱنْهالُوا عليْهم بالتَّعْنيف والتّأْنيب بسبب مقاومتهم لنا، وكان مما قالوه لهم:

ـ إِنّ الفرنسيّين أصدقاءُ لنا... فَمَرْحباً بهم...

ولكن لم تَنْطِل عليَّ حيلَتُهُم، ولا خَدَعني نفاقُهُم وكذبهم..، بل أَمَرْتُ جنودي بالقبْض على أولئك القساوسة الدجّالين، كباراً وصغاراً...، من أَجْل تقديمهم إلى مَجْلس عسكريّ ومحاكمتهم.

الْبَحْثُ عن قاعاتِ التَّعْذيب؛

كُنا نعْتقد جازمين بِأَن هذا الدير وأمثاله يضُمُّ غُرف التعذيب بوسائلها وأَدواتهـا، وأن الداخـل إليها مفقـود والخارج منها موْلود، وأن هؤلاءالـرُّهبان إِنّمـا يرتكبـون جــرائمهم ومخـازيهم في تلك الأمــاكن الخفيَّـة عن الْعُيون . . .

وها قد حانت الفرصة الآن وسَنَحتْ لنا بـالكشف عن تلك الأماكن وإدانة أصحابها . . .

أعطيتُ أوامري بتفتيش الدَّيْر . . .

فانطلقت فِـرَق الجنود في ردهـاتِ الدَّيْـر وغُرَفِـهِ وأبهائه، كل فرقةٍ على رأسها ضـابط، تطوفُ في كُـلّ ناحية . . . ، فماذا وَجدْنا؟؟

طُفْنا بِغُرف الدَّير . . فرأينا ما فيها من أثاثٍ فاخـرٍ ثمين!!، وريـاشٍ وكـراسيّ هـزّازة!!!، وسجـاجيـد

فارسيّة!!!، ولوحاتٍ ثمينـة نادرة!!!، ومكـاتب كبيرة مصنـوعة من الخشب الثمين!!! قَلَّ أن تُوجَـد إلا في القُصـور الملكيَّة!!!، وقـد صُنِعَتْ أَرْض تلْك الغُرف جميعـاً من خشب (الموجَنَـة) المصقـول النـاعم... المدهون بالشَّمْع... وبطريقةٍ عجيبة..!!

كأَنَّه الرّخام الداكن اللَّون في لمعانِهِ وبريقه...

مما أخذ بعقولنا وأدْهشنا دهشة بالغة..

وكنت أسائل نفسي:

هـل هذه حيـاة الرُّهبـان النُّسّاك؟؟ هـل يتّفقُ هذا البذْخ مع الزُّهْد في الدُّنْيا..؟؟ بل أَيْن مفهوم الترهُّب الحقيقيّ..؟؟

وهذا التساؤل لم يكن من شأني وحْدي، بل كان شَأْنَ زملائي الضُّباط...، وكذلك الجنود أَيْضاً...، فقد كُنت ألمح على وجوه الجميع علامات الاستغراب والتعجُّب... والدَّهشة الشديدة.



العطر في كل مكان..؟!

وكـان شذا العـطور ورائحتُهـا الفـوّاحـة تعْبق في أرجاءِ كُلّ غرفةٍ أو رَدْهةٍ دخلْناها. . .

الْتفت إليَّ أحد زملائي وقال:

ـ مـا هذا يـا سيّدي؟؟ إن المكـان أَشْبَـه بـأَبهـاء القُصُور الفخمة الكبيرة التي لا تكونُ إلّا لِمُلُوكٍ قَصَروا حياتَهُم على التَّرَفِ واللَّهْو والتمتُّع بأطايب الحياة!!؟؟

قال ذلك، وهوينظر إلى مجموعة الـرُّهْبان الـذين كـانـوا يـرافقـوننـا في جَـوْلتنـا، ينـظر إليهم بـازدراء وٱحتقار. . .!!

وكانوا خافضي رؤوسهم. . .، وقَلَنْسواتهم تُغَطّي تلْك الـرؤوس ومُعظم الـوجُوه، وأيـديهم معقودة على صُلْبانهم التي يعلّقونها في صدورهم وتتدلّى من رقابهم بسلاسِلَ فضيّة و. . . ذهبيّة. . !!

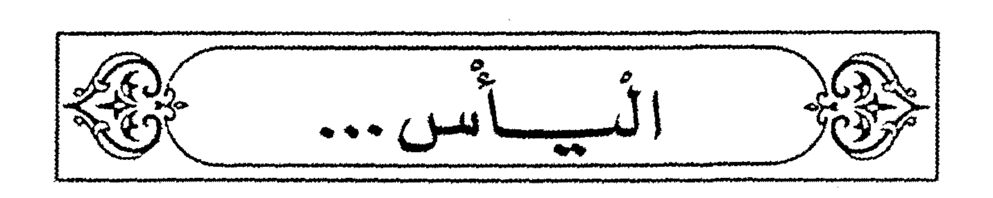
ولا يُحيرون جواباً على تعليقات زميلي الضابط المرافق. . .

ومن غَيْر أن نَسْأَل أو نَسْتَفْهِم أَدْرَكْنا سِرَّ تلك الروائح العطرية، فلقد كانت تَنْبعِثُ من الشَمْع الموقد، والموضوع في شمعدانات ضَخْمةٍ مصنوعة من النُحاس الصقيل، أو البلَّلوْر الباهظ الثمن (الكريستال)، منصوبة إلى جانب صُوَر كبار رجال تلك العصابة من رُهبان «الجزْويت» ـ اليسوعيين ـ، تمجيداً لهم وتعْظيماً. . .

وكُنْتُ كُلّما آقتربْتُ من شمْعةٍ مُضاءَةٍ ازداد عَبَق الْعِطْر في أَنْفِي. . .، فتلمَّسْتُ الشَّمْع بيدي. . . بأطراف أناملي. . .، ثم أَدْنَيْتُها من أَنْفي. . . فإذا الرائحة تزداد قُوّةً. . .!!

لقد عُجِنَ الشَّمْع بماءِ الوَرْد. . .، وهذا هو سرّ الْعِطْر. . .





اليأس...

وبعد أكثر من ساعتين . . وكُنّا قد طَوَّفْنا في كُلّ غُرَفِ هذا الدَّيْر، ونَقَّبْنا . . . وبحثْنا . . . وَدقَّقْنا . . . ، وكاد مجهودُنا يذهب سُدًى في محاولة الْعُثُور على قاعات التَّعْذيب . . .

ولقد فَحَصْنا ـ بالْفِعْل ـ كل الْغُرف . . . المنامات، والصالونات . . . والمطابخ . . . والأقبية حتى الكنيسة وملحقاتها . . . ، فلم نجد شيْئاً . . . ، فداخَلَ اليأْس نَفْسي . . . ، وآرتسمتْ علاماتُ الإحباط والفشل على محيَّاي ، وضاق صَدْرِي ! ! ،

عندئذ عزمت على إعطاء أوامري بمغادرة المكان، والاكْتفاء ـ عن قناعةٍ ـ بتقديم أولئك الرُّهبان «الجزْويت» إلى المجلس العسكري لمحاكمتهم ومقاضاتهم بتُهْمة المقاومة فقط . . !

وكُنا قد وَصَلْنا في تَجْوالنا إلى القاعة الرئيسية التي منها دَخَلْنا، فعُدْنا من حَيْثُ بَدأنا . .

وكان هؤلاء الرُّهبان يُقْسِمُون بـأَغْلظ الأَيمان. . . ويؤكّدون. . . أن كُلّ ما يُشاع عنهم ويُـذاع بَيْن الناس حَوْل ديرِهم هذا. . . ليس إلاّ تُهماً كاذبة، وافتـراءات باطلة. . . ودَسّ ٍ رخيص. . .، وأنـهـا كُلّها أحاديث أَشْبَهُ بالخرافات والأساطير. . .،

قالوا ذلك بلسانِ رئيسهم، بصوْت خافتٍ خاشع، كأَنه في صلاة. .، وعيناه مغـرورقتانِ بـالدَّمْـع الهتُون الغـزير. . .، ويقـول أَيْضاً إنَّـه وإخوانـه من الـرُّهبـان يتحمّلون كُلّ ذلك تَقرُّباً إلى الرَّب. . . وفي سبيله.

وعلى الـرُّغم من فَشَلي ويأْسي، كُنْتُ غيـر مُقتَنِع بما يقول هذا الشيْطان، وتَظْهر لي دُمُوعه وكأنها دُمُوع التماسيح . . .، ولكن ما بالْيد حيلة. . .، فقد صـرفْنا وقتـاً طـويـلاً في الْبَحْث. . .، ولم نـجـد شيْئـاً. . .، وحُجَّةُ الرُّهْبان في نَفْيِ التُّهَم عنهم قد ظهرت أقوى من حُجَّتنا في إثْباتها عَلَيْهم. . .

لــــولا...

كادوا يَخْدعُوننا فَنَنصَرْف...

وأَعـطيْت بـالْفِعْـل أَوامـري للضُّبـاط والجنـود بالاستعْداد لمغادَرَةِ المكان، لـوْلا... كلمة سمعتُها من ضـابطٍ مـرافق لي يُـدْعى: «دي لِيـلْ»، حَبَسَتْني قليـلاً... وآستـوقفتني... وكـانت المفتـاح للسِّـرّ العظيم... الرهيب؛ قال الضابط «دي لِيلْ»:

ـ أَتَسْمح لي يا سيدي أَنْ أقول لـك إن مهمّتنا لم تَنْتَهِ حتّى الآن...!!! قُلْتُ له:

ـ وكيْف..؟

فَتَقَدَّم مِنّي وهمس في أُذُني وقال:

ـ أؤكد لك يـا سيِّدي أَنّني في صَـدَدِ الْعُثُور على السِّرّ... فأَجبتُه، هامساً أَيْضاً ـ:

ـ ولكن أَلَمْ نفتّش كُلّ الدَّيْر ولم نعثر على شيْء؟

ففيم تَرْغب؟ وأَيْن تكمن ملاحَظَتُك؟

كان الضابط «دي لِيلْ» ذكيّاً لمّاحاً، ومخلصاً وفيّاً. . .، فقال بصوْتٍ عالٍ وهو يَنْظرُ إلى وجوهِ الرُّهبان مُتَفحّصاً ليرى آثار وقع كلماتِهِ على وجوههم وفي عيونِهِم، وقد بَدَتْ واضِحةً في هذه الرَّدْهة الواسعة، وتحْت أَضْواء الشمعدانات الكثيرة المنتشرة. . ؛ قال:

- أَجَلْ. . . قد فَتّشنا. . . ولكنّني أَرْغب في فحص أَرْض الْغُرَف، وأَدقّق في فَحْصها وآختبارها. . .، فإنّ قلْبي يحدثني، وكذلك وساوس نَفْسي بأَنّ السرّ كامن في هذه الأَرْضيّة. . . وما تَحْتها. . .، وأَنّ هذه الْغُرَف الفخمة بأثاثها ورياشها وزينتها تَسْترُ ما جئنا نَبْحَثُ عنه!!؟؟

فنظرتُ إلَيْه باهتمام، وأَصغيْتُ إليه بإنْصات، ثم نَقَلْتُ بصري إلى وجوه عصابة الرُّهبان، فإذا بهم ينْظُر بعضهم إلى بَعْض نظرات ذات معنى ومغزى. . .،

فيهـا انْكسار ودهشـة. . . وحيْـرة. . . ، عنـدئِـذٍ أَذِنْتُ للضابط «دي لِيلْ» بـإعادة التفتيش، وأطلقْتُ يـده في البحْث من جديد.



تَصَرُّفُ الذكيّ الخبير...

أَمَــرَ الضــابط «دي ليــل» بعض جنوده بِــرَفــع السجاجيد الْفَخْمة من أرضيَّة الْغُرَف. . . ، وأَمَرَ طائفة أُخــرى بإحْضــار (جــرادل) المــاء. . . ، ثُمّ أمــرهم أن يصبُّوا هــذا المــاء بكثــرةٍ في أرض كُــلّ غــرفــةٍ على حدَة. . . ، ففعلوا. . .

وٱنتظرنا لحظاتٍ قليلة. . .

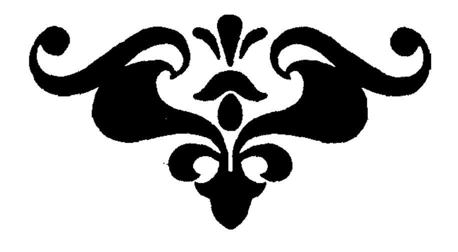
كُنّــا نراقب المــاء. . . ، فــإذا بــالْأَرْض تَبتلعُهُ في إحــدى الْغُرَف، وإذا بِــهِ يتَسرَّب إلى أَسْفــل. . . ، ولا تَبْقى منــه نُــقــطةٌ واحــدة فــوق الأرض الخــشبــيّــة المشَمَّعة. . .

واتضحت معالِمُ تلك الْأَرْضيّة. . .

وصفّق الضابط «دي ليل» بيديْه، وهــو يكاد يــطير

من الفرح. . . ، ثم قال وَهُوَ يُشير إلى ناحيةٍ في أرض الغرفة:

ـ ها هُوَ ذا الباب. . . أُنظروا. . .



باب الدِّهْـليز؟!!

فَنظرْنا، وإذا البابُ قد ظَهَر وبدا واضحاً...

كان عبارَةً عن قِطْعة من أَرْض الْغُرْفة... يُفْتَحُ بطريقةٍ شَيْطانية...، وبواسطة حلقةٍ صغيرةٍ، لا تكادُ تُـرى، مُثْبتة إلى جوار إحدى أرجُل مكْتب الرئيس الخشبيّ العريض... الْفَخْم...

ومن شِدَّة غَيْظ الْجُنْد... لم يَهْتَمُّوا بالْحَلْقة...، بل راحُوا يطرقُون الباب بأعقاب بنادقهم، ويضربونَهُ بشدّةٍ حتى ٱنَكسَرَ وتطايَرتْ أَجْزاؤه في أرجاءِ المكان...، وإلى أَسْفَلَ أَيْضاً...

وأحاطَ بأفراد العصابة، من رئيسهم إلى أَدْنى «راهب» فيهم، فِرْقةٌ من الْجُنْد...، تصَوِّب نحوهم فوهات البنادق؛ وحشروهم في زاويةٍ من زوايا غرفة مكتب الرئيس التي نَحْن فيها، والتي كانَتْ مدخلنا إلى

اكتشــاف أعـظم وأخْــطر غـرف وقــاعــات [ديــوان التفتيش]!! على الإطلاق.

هـذه المفاجـأة زادَتْ من هَلَع وخـوْف الرُّهبـان، عصابة «الجزويت»، آشتد آصْفرار وجوههم، وعَلَتْها غَبَـرةُ المـوْت. . . ، وخـارَتْ منهم كُـلّ القـوى. . . ، وآمتـدَّتْ أيـديهم إلى رؤوسهم تَنْـزع عنهـا القــلانس برعشةٍ وآرتجاف. . . ، ولم يعودوا ليعْقدوا أَكُفَّهم على صُلْبانهم المدلاَّة في صدورهم. . ، بل كانوا يمسحون الْعَرَق البارد المتحدّر من جباهِهم!!!



الشَّمْعَةُ المقدّسة!

وفُتح الباب . . .

بل تكسَّر جُذاذاً . . . وفُتاتاً ! ! !

وظهر لنا سُلَّم حجريّ، بِدرَجاتٍ من البلاط العريض . . .، وحاولْتُ النَّظَر إلى أَسْفل!!!، كان الظلام شديداً دامساً فلمْ أَتبيَّن شيْئاً، سوى أُولَى السّلالم البادية قريباً من أَرْض الْغُرْفة . . .

وٱلْتفتُّ إلى يميني فَرَأَيْتُ شَمْعة كبيرة، تزيد عن مِترٍ طُولاً، موضوعة على قاعِدَةٍ نُحاسية تتراقصُ ذُؤابة ضوئها على صُورةٍ مرسومة بالزّيْت والألْوان لِأَحَد رؤساءِ محاكم التفتيش والديوان المقدّس . . .، ويَبْدو وَجهه من خلالها بِلحْيتِهِ الكثّة وعيْنيه الغائرتيْن وقَلَنْسُوَته الضَّخْمة كَأَنَّه الشَّيطان . . .، فَتَقزَّزْت من الْمنظر، وأَشَحْتُ بوجهي نافراً عنها، وقد رفَعْتُ الشمعة بيدي

عن قاعدتها. . . وتقدَّمْتُ من السُّلَّم لِأَهْبط إلى داخِله، وإذا بي أَفاجأُ بِأَحَدِ هؤلاء الرُّهبان يَدْنو مِنْي متلطّفاً وهو يضع يَدَهُ على كتفي ويقول:

ـ أَرْجُوك يا بُنَيّ أن لا تحمل هذه الشمْعة بيدك الْمُلَوَّثة بدم القتال والحروب وإزْهاق الْأَنْفُس. . . فهذه شَمْعةٌ مُقدَّسة!!!

وإذا بالضابط «دي لِيل» يزيح يد هذا القسيس عن كتفي بِعُنْف وشِدَّة، وقد ظَنَّهُ يُريد بي سُوءاً. . .،

وكذلك الجنود الذين يحيطون بالرُّهبان ويحجزونهم في زاويةٍ من قاعة المكتب. . . قد وضَعُوا فوهات البنادق في صدور الرُّهبان، وكُلٌّ منهم يدُهُ على زنادِه. . .، وراحوا يصرخُون في وجوه أفراد العصابة صَرَخات الغضب والثَّأْر، قائلين:

ـ يا مُجْرمون!!! يا قَتَلة!!! يا سَفَّاكون!!!

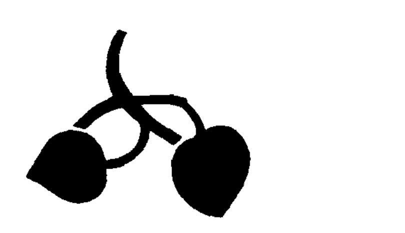
كيْف تفهمون معنى كلمة القداسة!؟؟

ونَظَرْتُ إلى هذا الْقِسِّيس بغيظٍ وحِقد وقلْت:

ـ إنّ ما تَقُولَهُ حقٌّ ـ يا هذا ـ . . .، لأنه لا يليق

بيــدي أن تَتَنَجَّس بِلَمْس شَمْعَتِكُم الملوَّثــة بــدمــاء الْأَبرياء. . . ، الشّاهدة بضوئها ونورها على مخـازيكم وجرائمكم!!!

ولســوْف نـرى ـ عمــا قليــل ـ من هــو النَّجِس مِنّا. . . ، ومن مِنّا القاتل السَّفّاك؟!



قاعة المحكمة؟!

وهَبْطتُ السُّلَّم ذي الدَّرَجِ الطويل، وتَبِعَني بَعْض الضّباط، وعلى رأسهم الضابط «دي ليل»، وكذلك مجموعة من الْجُنْد، بعضهم شاهر سَيْفه، والآخرون بنادِقَهُم . . .

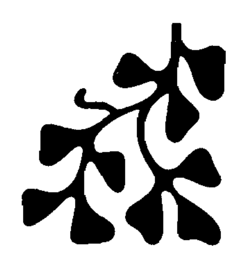
وكانُوا يَدْفَعُون أمامهم بالرئيس، رئيس العِصابة!!!، إن تَلَكّأ في مِشْيته أَوْ تباطَأ لَكَزُوه بأعقاب البنادق أَوْ بِأَيْديهِم . . . حتى كاد يتعثَّر في السُّلَّم أكثر من مرَّة ويتعرض للسقوط!!

ووصلنا إلى آخر الدَّرَج . . .

فإذا بنا في غُرْفةٍ كبيرة . . . رحْبَةٍ واسعة . . . مربعة الشَّكْل . . . ، عَرَفْتُ من بَعْد أنّها قاعة المحكمة!!؟

كان يتوسطها عمُودٌ من الرُّخام، ضَخْم الإِسْتدارة،

فيه حَلْقة حديديّة مُثْبة في جانبه، رُبِطَتْ بها سلاسل، كـانوا يقيّـدون فيها فـرائسهم التي تكُون رهْن التحقيق والمحاكمة.

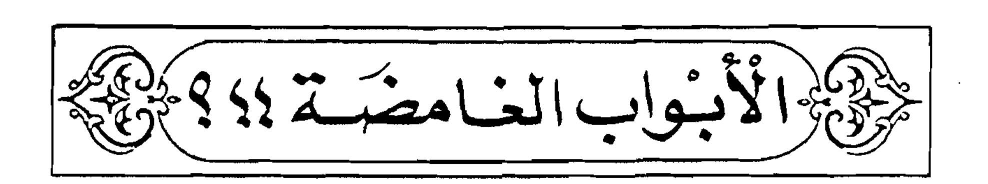


وَعَـرْشُ الدَّيْـنونـة!!

وبإزاء هذا العمود كان [عرْشُ الديْنُونة]!!

وهو عبارة عن مِنَصّة (مصطبة) عالية...، يَجْلس عليْهـا رئيس [ديوان التَّفْتيش]، المحقّق والقـاضي في وقْتٍ معاً...، وإلى جانِبَيْ ذلك المقْعد المرتفع، عن اليمين وعن الشمال أماكن لجلوس جماعة المسْتشارين المعاونين، وكانت أَخْفَض قليلاً من مقعد الرئيس.





الْأبْواب الغـامضَـة ؟!؟

رفعتُ الشَّمعة قليلاً بيدي فَظَهَرتْ لي أبوابُ كثيرة في جنبات هذه القـاعة، بَعْضهـا من الْخشَبِ الغليظ، وبَعْضهـا من الحديـد. . . ، وأَلْوانُهـا هي نفْس ألْـوان الْجُدْران، فَكأَنها قطعة واحدة. . !!



وَغُرَفُ التَّعْذِيبِ؟!

ثم عرفْتُ أن الأبواب تؤديّ إلى غُرَفِ التَّعْذيب . .
ففتحْناها واحداً بعد الآخر وشاهَدْنا ما فيها،
ويا لِهَوْل ما شاهَدْنا!!!
ويا لفظاعة ما رَأَيْنا!!!
لقد آمتدّت كُلُّ تلك الغرف إلى مسافاتٍ كبيرة، وأعماقٍ بعيدة، فيها ظُلْمة شديدة، ورطوبة وعُفُونة . . .

كانت كلها تحت الأرض . . . ، لقد رأينا فيها ما يستثير النَّفْس ويَدْعوها أن تشمئز وتتقَزّز، مهما عاشت وآمتدَّ بها الْعُمْر، ولا يُمْكن للنسيان أبداً أن يَطْويها ويمحوها من الذاكرة . . .

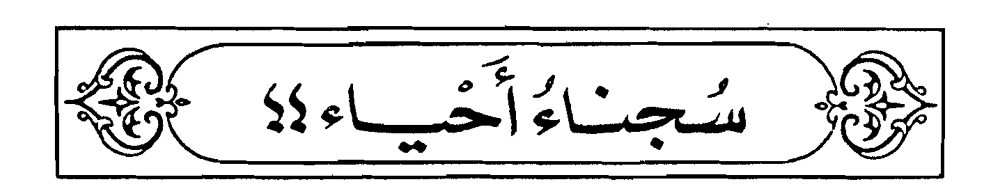
رَأَيْنا غرفاً صغيرة بِحجْم جسْم الإنسان، بعضها عامودي . . . والآخر أُفقيّ، فيبْقى سجين الغرفة العاموديّة فيها واقفاً على رِجْليْه مُدَّة سجنه حتى

يقْضي . . ، وكذلك يبقى سجين الغرفة الأُفُقيّـة مُمدّداً حتى يمـوت . . . ، وفي كِلتا الحـالتيْن تبقى الجثّة في هــذا [القبْــر] الضيّق حتى تبْلى ، ويسقط اللَّحْم عن العظْم ! ! !

ومن أَجْـل صَرف الـروائح الكـريهة المنْبعِثَـةِ من الأجساد المهْترئة البالية ، فُتِحَتْ كُوَّة صغيرة لا تَزيدُ في مساحتها عن حَدَقةِ العيْن إلى الخارج . . أدْركْنا مغزى ومعنى كثـافة الـرّوائح العـطريِّة التي كـانَتْ تَنْتشــر في غُـرَفِ الدَّيْـر الْعُلْيا . . ، وكـذلك المـادَّة الشمعيَّة التي طُلِيَتْ بها الأرضيَّة الخشبيّـة للْغُرَف ، حتى لا تتســرّب روائح الحثث المتعفْنة فَتَزْكم أُنُوف قاتليها وجلاديها ! ! !

ولقد عَثَرنْا على عدّة هياكل بشريّة ، لا تَزال عظام الأيدي والْأَرْجل مربوطة مشدودة إلى القيود والسلاســل الحديدية . . .

ومن خلال التدقيق ، والتَّقْدير . . ، فقد تبيَّن لنا أن هيـاكل السُّجنـاء كـانت لـرجـالٍ ونســاء ، . . تتفـاوَتُ أعمارُهُم من الرابعة عشرة إلى السَّبْعين ! ! ؟ ؟



سُجناءُ أَحْيـاء؟!

وسَمِعْتُ بعض الْأَنين الخـافِتِ... الضّعيف المتهالك...

فأشْرت على الضابط «دي لِيْل» أنّ يفْتح جميع الْأَبواب... في الدِّهْليز الذي دَخَلْناه...

فَفَعل؛ وبهذا تَيسَّر لنا أنْ نَفُكَّ أغْلال بعض السُّجناء الذين لا يزالون أحْياء، وهُم على آخر رَمَقٍ من الحياة...

لقد طالت شعورهم...، وغارَتْ عيونهم...، وبرزتْ عُرُوقُهُم...، آختفت ملامح الآدميّة والبشريّة من على وجوههم...، وآلتصقت جلودهُم بعظامهم...

وأَغضيْتُ بنَظَري عَنْهم... لا آشْمئزازاً فقط.. بل حياءً وخجلاً، فقد كانوا جيمعاً عرايا، كيوم ولدتْهُم

أُمهاتهم، وكان هذا التصرُّف من جلاديهم نكايةً بهم، أَشَحْتُ بِنَظَري.. فَوَقَع على رئيس العصابة، وعَجِبْتُ أَشَدّ الْعَجَب...، فقد كان يَنْظُرُ إلى هؤلاء مُحَمْلِقاً... لا تَطْرف له عين ولا يهتَزُّ لهُ جَفْن!!!

فَقُلْتُ مُغتاظاً وقد ٱرتفعت يدي تهمّ بصفْعِهِ وضَربِهِ:

- يا للقداسة... ويا للطُّهْر والعفاف!!!، لقد أَشْفقْتَ من قَبْلُ على الشّمْعة المقدَّسة من أن تمسَّها يدي... ولم تُشْفِقْ أَنْت على النَّفْس البشريّة أن تُمتهَنَ إلى هذا الحدّ...

يا لَكَ من سَفّاح مُجْرم..!!
وصَرَفْتُ يدي عَنْه...

وكان منظر الجنود، جنودي، وهم يخلعون أَرْديتهم ويُلْقُونها على النّساء المسْجونات... العرايا..، منظراً يُثير في النَّفْس الإِنسانية كُلّ عاطفةٍ كريمة، وإكْبارٍ وإعجابٍ...

الخروج... إلى النّور

كان ظلام أقْبية الدِّهْليز شديداً، لا يرى فيه الإنسان أَصْبعه، والروائح كريهة تَزْكم الْأُنوف.. !

حتى ضَوْء الشَمْعة الوحيدة التي أَحْملها بيدي كان يخفت قليلاً بسبب الرُّطوبة، ولَوْلا تسُّرب الهواء المحمّل بالأوكسجين من خلال فَتْحة أرض الْغُرْفة، غرفة مكتب الرئيس.. ، لإِنْطفأت...

وحتى ضوء هذه الشّمْعة الخافت.. كان يؤْذي عُيُون المساجين، فيضعُونَ أيديهم على أَبْصارهم، مخافة أنْ يعْشيهم!!!

قال لي الضابط «دي لِيْل».. :

- يا سيّدي... أَوْلى بنا أَنْ لا نَخْرج بهؤلاء المساكين دُفْعةً واحدةً إلى النُّور، فإنّ ذلك يُفْقِدهم

الْبَصَر. والتدرُّج أَفْضل وأَحْسن، ليتعوَّدوا ذلك بعد ما عانُوهُ وقاسُوهُ..

قال لي ذلك بِصَوْتٍ عالٍ، قريب من الصُّراخ..، والسَّبَب هُو مهرجان القهقهات الهستيرية التي كانت تصْدر من بعض السُّجناء الذين فقدوا عقولهم، وصَرَخات الْفَرَح بالخلاص التي كانَتْ تصْدر عن البعض الآخر... وقد آنكبُّوا على أيدي الضّباط والجنود يقبّلُونها... وكذلك الْأَرْجُل!!؟؟ وهُم لا يُصدِّقُون أنهم قد خَرجوا من تلْك القبُور الموحشة، وأن نَسْمَة الحياةِ قد عادت إليهم بعد موْتٍ مُحقّق...

وقُلْتُ للضابط «دي ليل»:

ـ حَسناً تَفْعل!!

فأعطى أمْرَهُ لبعض جنودِهِ بإخراج المسجونين رُوَيْداً...، وحَمْل الضعفاء منهم إلى الْأَعْلى... إلى قاعة المكتب... ليستريحُوا قليلاً ويتعودوا النُّور...



آلاتُ التَعْذيب!!

لم تكُنْ غـرف السجن الـرهيب، والسِّـرداب العجيب أو رؤيـة المسـاجين فقط هي التي أَثـارَتْ الْقُلوب والنفـوس، بـل الْأَدْهى والْأَشـد. . . آلات التَّعذيب ووسائل الترهيب، وأدوات الْقسْر. . !!

وأشار أحد المساجين إلى بابٍ، من غيْر أن يتكلّم أو ينـطق بِحَـرْف. . . ، بسبب عَجْـزِهِ، إذْ أُصيب بالْخَرَس. . . ، حتى إنّ حَرَكةَ يـده التي أشار بهـا إلى الباب كانت ضعيفةً، ولوْلا آنتباهي إليه لمـا أدْركْت ما يُريد. .

توجَّهْتُ إلى الباب ومعي زملائي، وعالجْناهُ حتى فَتَحْناه، ودلفْنا إلى قاعةٍ فسيحة فيها البلاءُ الْأَعْظم. . ، فيها آلات التَّعْذيب!!!

آلة التكسير؟!

وقفنا على آلةٍ عجيبةٍ، لها عجلات متلاصقة تُشْبه [النشّابة]، تُدار بالأيدي والسّواعد القوية، تُسمَّى آلة تكسير الْعظام!!!.. أرأيت «عَصَّارةَ القصب»؟!!

يُوضع المعذَّبُ المسكين، المحكوم عليه بالْموت في الطَّرَفِ الْأَوَّل منها، من ناحية قدميْه ورجْليْه...، ثم تُدار الآلة... وتمضي العجلات... والْجِسْم تَحْتها يمضي مُتَتابعاً...، عظام الفخذيْن، ثم الصَّدْر واليديْن...، ثم الرَّأْس...، بحيْث يَخْرج من الطرف الآخر كُتْلةً واحدة..!!

الأرض حَوْلها ما تزال رطْبةً بدماء الكثيرين من الضّحايا الْأَبرياء...، لذا لم نَسْتَطِعْ أن نتقدَّم منها كثيراً لِفَحْصها، إستشعاراً مِنّا بقُدْسيَّة هذه الدِّماء...

كُلّ ذلك والرئيس، رئيس العِصابة، المشْفق على قداسة الشَمْعة!!! يُجَرُّ معنا إلى حَيْث نَتَوجّه ونَقِف... جَرّاً، ويُدَعُّ دَعّاً..!،



صُنْدوق الـرّأس

وعَثَرْنا على صُنْدوقٍ صغير. . . ، في حَجْم رأس الإنسان تماماً، ، تُوضَعُ فيه الرَّأس، بعد أن تُربط أيدي وأَرْجل صاحبها بالسَّلاسل، فـلا يقوى على الحـراك، وهو واقف منْتصب، ثم تُقْطَرُ على الرأس من ثُقْبٍ في أعلى الصُّندوق قطرات الماء البارِدِ. . . ، فَتَنْـزِل على الرَّأْس بٱنْتِظام. . . ، في كل دقيقةٍ نُقْطة. . .

ولقد جُنّ الكثيرون من المعذَّبين المساكين بسبب هذا الصُّنْدوق. . . ، قَبْل ٱعترافِهِم. . ، فإن أَصَرُّوا. . ظلُّوا رهْن هذا اللَّوْن من العذاب حتى الموْت!!!



السيدة الجميلة

وعَثَرْنا على آلة ثالثة. . للتَعْذيب. . بل لِلْقَتْل. .

كانت الآلة تُسمّى : [السَّيِّدة الجميلة]!!!

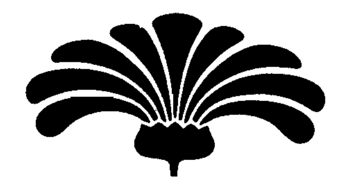
وكانت عبارة عن صندوق خشبي مستطيل يُشْبِهُ التَابوت، لم نَحْفَلْ به أَوَّل الْأَمر، وظنّنّاهُ تابوتاً لِرَفْع جُثَثِ الموْتى بَعْد نهايتِهِم. . .

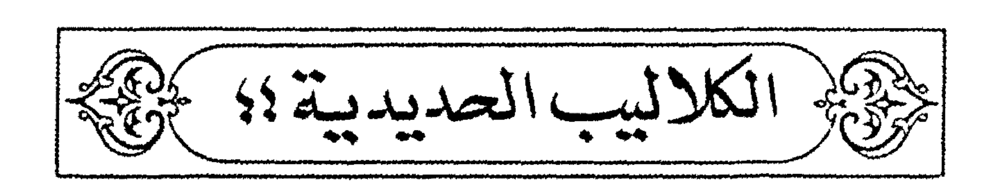
لكنَّ أحد جنودنا عندما تقدَّم مِنْهُ ورفع غطاءَه على سبيل الفُضُول، صَرَخ وٱرْتدَّ إلى الْخَلْف. .، إذ لمعتْ في وجهه أَنْصال سكاكين مغروسة في كُلّ جهاتِ الغطاء. . .

تقدّمْتُ. . فَرَأَيْتُ في قَعْرِه رسْم صُورة إمرأةٍ جميلة، فاتحة الذراعيْن، وكأنها على إستعْدادٍ لِلْعِناق. . .

كانُوا يَطْرحُون المعذَّب. . الشّاب. . فوق هذه

الصورة، ثم يُطبقُـون عليه الغـطاء، بِعُنفٍ وبِشِدَّة. . .
فَتُمَزّق السكاكينُ الحـادة جسْم الشّاب، وتقـطّعه. . .
وتْخمِدُ أنْفاسه إلى الْأَبَد.





كما لفت نظري سلاسل من حديد معلقة بالجُدْران، تنتهي بكلاليب حادَّة الرؤوس والأطراف...

فَعَرفْت من بعد أنّها آلاتٌ لِشدّ اللِّسانِ وسَحْبِهِ من الجوْف...، وآقْتلاعه، وكذلك لتمْزيق أَثداء النّساء... وسَحْبها من الصُّدُور حتى الجذور، ورأيْت في بَعْض الكلاليب مجالِدَ من حديد، تُشْبِهُ الأَمْشاط، لجلْدِ المعذَّبين وكشْط اللَّحم عن العظْم...

وَغَيْر ذلك كثير.. وكثير جدّاً.



الثَّوْرة.. ورَّدةُ الفعْل؟!

بَيْنما نَحْن في الْقاع. . . ، قاع السِّرْداب. . . ، نتنقَّل في أرجائه هنا وهُناك ونرى من الْعَجب العُجاب ما تقشعِرُّ لِهوْله الأَبْدان ويشيب الأطفال والولْدان، ويذهب بالعُقُول. . .

بَيْنما نَحْن في هذا الخِضَمِّ الهائل. . .

إذ سَمِعْنا أَصْواتاً وضَوْضاء. . . ، ووقْعَ أَقْدام متلاحقة مُتتابعة. . . ، وهياجاً وصياحاً، وشعاراتٍ تُردَّد:

- الموْت للسفاحين. . الموْت للمجرمين. . .

وتدفّق علينا حَيْثُ كُنّا سيْل من الناس الهائجين الثائرين، بَعْضُهُم يَحْمل العصيّ. . وآخرون يحملون الحجارة. . ،

لقد نَزَلُوا وراءَنا إلى السِّرداب. . . إلى

الدِّهْليز... والثَّوْرة العارمـة تقودهم وتحشُـدُهم، وقد ضاقت بهم القاعات والْغُرَف... والسلالم، حتى لم يبق موطىء لِقَدَم...

وتساءَلْتُ:

- من أَيْن جاءوا؟ وماذا يُريدون؟ وكيْف عَرَفوا؟

وظلَّتْ تساؤلاتي بلا جواب.

ولم نكُن لنستطيع أبداً أنْ نُوقف هذا الزَّحْف، أو نحول بيْن هذا الإعصار المدمّر وبَيْن ما يُريد...

لقـد وصلت أنباءُ إقتحـامنا لِلدَّيْـر إلى العـاصِمَـة «مَدْريد»...، والشَّعْب في أكثريتِهِ غاضب... مكتوم العـاطفة... يَسْمـعُ بفظائـع رُهْبان الـديـر وأعمـالهم الـوحشية في كـل يوم وليلة، وكم من أب وأم وقـريبٍ وحبيب غَيَّبَتْه ظُلمَةُ الدَّيْر وظلامه، بلْ ظُلْم جَلاديه من الرّهبان، عن أَهْلِه وأحبّائه فلا يستطيع قوْلاً ولا يُمْكنـه أن يـرفـع صَـوْتـه بـالشَّكْـوى... وإلا كـان مصيـرُهُ كمصيرهم..!!

الشَّعْب بـأكثـريَّتِـهِ السَاحقـة واقـع تَحْت سـطوة

وسُلْطان هؤلاء الفُجّار. . ، ولكنه معدوم الحيلة، لا يَمْلك القرار. . ولا القيادة. . . ليثور وينتزع حريته ويستيعد سُلْطانه وكرامته. . .

الشَّعْب بأكْثرِيَتِهِ الساحقة من بقايا «المورسْك» - المسلمين الذين كانوا ذات يَوْم وعلى مدى قرونٍ طوال حُكام البلاد وسلاطينها وصُنّاع الحضارة والمدنّية فيها. . .

وكانوا جميعاً كأكْوام الْحَطَب والقش. . . أو الوقود الذي يَنْتَظِرُ عُود ثقاب ليضطرم ويَشْتعل، ثم يلْتهب. . . فَيَأْتي على الْأَخضر واليابس. . .

ما إن وصلتْهُم أنباء آقتحامنا للدِّيْر مع الفجر. . ، ولا نَدْري كيْف؟ ؛ حتى خَرَجُوا على بكرة أبيهم، في ثَوْرةٍ قَلَّ أن شهدت أرض إسبانيا مِثْلها، ومَشوْا على أقدامهم. . . كباراً وصغاراً، شيوخاً وشباباً، نساءً وأطفالاً، يهزجُون ويَصْرخون ويَهْتفون، كأنهم المحيط الزاخر. . . لا ترتدُّ أمواجُهُ ولا تتكسَّر. . . حتى بَلَغُوا الدَّيْر.

وأحاطوا بِهِ من كُلّ جانب، ثم اَقْتحموْه، ولم يَسْتطع جنودنا أن يمْنعوهم أوْ يحجزوهم، فقد كانوا أعداداً هائلة، وثورتُهُم عنيفة، ونفوسهم تَغْلي بالحقد والثَّأْر. . .

والذين اَقْتَحُموا الدَّيْر. . .، ثُمّ غُرَفَهُ وردهاتِه. . . . كانُوا أَقَلَّ بكثيرٍ مِمَّن ظَلُّوا خارِجَه. . . أو في ساحاتِهِ. . .

إسْتطيع أن أقول من غَيْر مبالغةٍ ولا تَهْويل. . . ولا تَضْخِيم:

لقد شَعَرْتُ وأَحْسَسْت كَأَنَّني في يَوْم الحشْر!!!

لم تُفْلِحْ نداءاتي، ولا صُراخي. . . مع هؤلاء الثائرين، بَلْ كانَتْ تَذْهب تائهة ضائعة، كأنها صَرْخة في واد. . .

وشَعَرْتُ أنني في مأزق أنا وجنودي، وزملائي الضُّباط، فَوَقَفْنا جانباً نرْقُب ما يَحْدث ويجري. . .

عندما شاهد الثّائرون المسجونين والمعذبين الذين أَخْرجناهم وفيهم رَمَقٌ من حياة، وهم على ما هُم عَلَيْه

من سوء المصير وواقع الحال، وكان لهم فيهم أقرباء وأحبّاء وأَصْدقاء. . .، جَرّوا رُهْبان الدير. . .، من الرئيس حتى أَدْنى راهب، وآنتزعُوهم من أيدي الْجُنُود. . . يريدُون أن يبطشوا بهم. . !! ويقضوا عَلَيْهم. . . .،

وإذا بِصَرْخةٍ مُدويّةٍ تَقُول:

- أُنظروا أَيُّها الناس إلى آلات التَّعْذيب والقتْل. . !

كانت الصَّرْخةُ عالية، فيها قُوّة. . .، وفيها تَنْبيه. . . وفيها إيحاء. . .

وجُنَّ جنون الناس. . .، وآشتعلُوا بنيران الْغَيْظ. . .، وكانوا كالَّذي مسَّه الْجِنّ. .

فَأَمَسكُوا أولاً برئيس أولئك الرُّهبان «الجزويت» - اليسوعيين -، رئيس العصابة وشيطانها الأكبر. . . ثم وضَعُوهُ في آلة تكسير العظام. . .، ولم نُشفِق عليه. . .، ولم نُحاول مَنْع الناس منه، ثُمّ أداروا الآلة، التي تكاثرت عليها الأَيْدي. . .

فدقت عظامَهُ دقّاً، وسَحَقتْهُ سَحْقاً، ونـدّت عنه

صَرْخة كانت أشَدّ وأقوى من صَرَخات المساكين الأبرياء الذين سبقُوهُ تحتها، وعلى يديْه هُو. . . بالذّات!!!

ثُمّ أَتْبعُوهُ بكاتم سِرّه ونائبه، ليس تحْت آلة تكسير العظام، بل زفُّوه إلى السيّدة الجميلة!!! فاتحة الذراعيْن، وأَطْبقوا عليه غطاء الصندوق التابوت فمزقَتْه السكاكين تمزيقاً.

وكان ذلك بَيْن تهليل الناس المحتشدين وصُراخهم وهياجهم.

ثم أخرجوا الْجُثَّتّين. . .، أو بالأخْرى اشلاء الجُثَّتَيْن. . .

وفعلوا بباقي الطُّغمة من الرُّهْبان ما فعلوه بالرئيس ونائبه. . .،

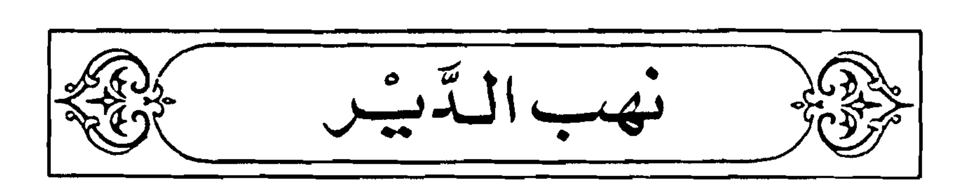


جزاءً وفاقًا

وفي خلال ثلاثين دقيقة تقريباً قضى الثائرون من الشَّعْب المضطهد المعذّب على ثلاثةَ عشَرَ راهباً من تلْك العصابة الآثمة. . . ، أولئك الذين كانوا يتولَّون المحاكمة والتحقيق والتعْذيب.

أما جُنُودُهم ومُسَلَّحُوهم فقد إستسلَمُوا لِفِرْقتي وجنودي، وسلَّمُوا بنادقهم، وآحْتَمَوْا بنا. . . ، عدا من فَرَّ مِنْهم طلباً لِلنّجاة.





وتحوَّل الشعب الهائج إلى الدَّيْر. . . ينهب كُلّ ما فيه من أثاثٍ ورياشٍ وأموال وتُحفٍ وأدوات. . . حتى جعلوه خاوياً خالياً. . .، وقد بدا بعد خروج الناس منه كَبَيْتِ الأَشباح!!



السجلات

وكان من المهمّ جدّاً لنا أَنْ نُمْسك بالمستندات والوثائق التي زَخَرَتْ بها مكتبة رئيس الدَّيْر، والتي تُدين المجرمين حقاً، وتكشف مخازيهم وتفْضَحُ أعمالَهُم... ولم تكُن هذه الأوراق... لتثير آهتمام الناس... الثائرين... أو الغوْغاء المغامرين.

ولقد عثرنا على أسماء أُلُوفٍ من الأغنياء في سجلّات الديوانِ السِّرِّية، وهم السُّراة الذين قَضَوْا عليهم لإبتزاز أموالهم وثرواتهم، وكانوا ـ كما عَرَفْنا بعد ذلك ـ يضطرونهم إلى كتابة إقرارات تنازلاتٍ عن هذه الأَمْوال إلى الرُّهبان «الجزويت» ـ اليسوعيين ـ،

وبعد ذلك يُعَذِّبونهم... يقتلونهم بآلاتهم الجهنميّة، ثم يُخْفُون معالم جرائمهم في الأَقْبية... في جَوْف هذا الدّهْليز الرهيب.

يَوْمٌ كَيَوْم "البـاسـتيـل"

و[البـاستيل] هُـوَ السّجن الرَّهيب الّـذي كـان في «بـاريس» على عَهْـد الملك «لـويس السـادس عشـر» والذي ٱقْتحمه الشَّعْبُ الفرنسيُّ ثائـراً في الرابـع عشر من شهر يوليو عام (١٧٨٩ م)، وٱعتُبر ذلك اليْوم العيد القومْي لـ «فرنْسا».

يقول الضابط «ليمونسْكي» قائـد الحملة على ديْر الـرُّهبـان «الجـزْويت» ـ اليسـوعيين ـ في ضـاحيـة «مـدريد»، في ختـام تقريـره عن أحداث ذلـك اليْـوم المشهود:

يمكنني أن أقول، بأن ذلك اليْوم كـان أَعْظم يـوم تاريخيّ شَهِدَه العالم بأسره بعد يوْم «الباستيل»...

ويضيف قائلاً:

لقد عانَقَ الآباء أبناءَهم، والأبناء آباءهم، بعد ما مرّ

بهم من أيَّام العذاب، وقبّلت النساء بناتهنّ اللّواتي قُضى على عفافِهنّ في تلْك المطابق إغتصاباً. . ، وإنْهال التقبيل على آيْدي وأقدام الجنود الذين خلّصوهم من محنتهم، خصوصاً من النساء اللّواتي إنتهكتْ طُغْمَهُ رُهبان «الديوان» المنجَّس عفافَهُنّ. . . وآغتصبوهُنّ. . . تَحْتَ ستار الدّين وبتفْويض من بابا الكنيسة الكاثوليكية عام ١٣٢٩ ميلادية، وآمتدَّ إثمهُمُ وفجُورهُم على مدى خمسة قُرُونٍ من الزمان!!!

ويختم تقريره فَيَقُول:

والحقَّ أقول: إن الْقَلَم واللِّسان ليعْجزان عن وصْف ما رأيناهُ في ذلك الدَّيْر من الفظاعة والبربريَّة التي لا تخطر على عَقْل بشريّ، سوى الشياطين الذين قد يعجزون هُم أيضاً عن الإتْيان بمثل هذه الأعمال!!

وهكذا عزيزي القارىء، إكتُشِف سرُّ السِّرداب، سِرُّ الدَّيْر الرهيب، الذي ظاهِرُه الأردية السَّوْداء، ولبَاسُ التَّقْوى، ولِحى التّديُّن والطهارة والزُّهْد. . والقلانس

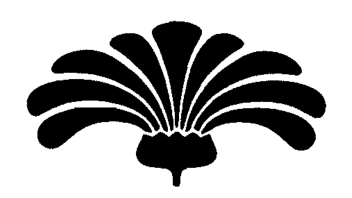
الكبيـرة. . . ، والأيـدي المعقــودة على الصُّـدور في خُشُوعٍ مُصْطنع. . .

وأزيـحِ الستار. . عن حِقْـد صليبّي مَقيتٍ بغيض عانى منه أَجْدادُنا في الْأَندلس، أشد معاناةٍ وأقْسـاها، وانْتَهَوْا منها إلى تعذيبٍ وقتْل وتشريد وإفْناء!!

ولـم يَعُد ذلك سِرَّاً!!!

وإلى اللقاء إن شاء الله مع:

[بيْت الْأَشْباح]




رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

سلسلة الأسرار الإسلامية

- سر الحجر
- سر الكنز المرصود
- سر السيف المخطوف
- سر بيت الأشباح
- سر الرمح الملتهب
- سر السرداب
- سر التفاحة
- سر الأقدام والأغنام
- سر السيل والليل
- السر تحت الشعر